

البَابُ الْخَامِسُ

كُتَابُ الْأَرْوَاحِ وَالْمَلَائِكَةِ

١ - أبو حيان التوحيدى

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين :
الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً
منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البهترى مثلاً يرجع
إلى قوة شغفه بعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده
على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرفى تفوق عبد الحميد
ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج
إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من
أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه
الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب وإلجأه . ولن تجسده فى صميم أدبه إلا رعداً يزجر
كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخلول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد
حتى تقيد تاريخ ميلاده ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم ترددوا بين نسبته إلى
واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص
فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى
سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى
فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه
(١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى الدوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر
من ذلك الكتاب .

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض في حياة التوحيدى قيمة في فهم جده العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلاً مجدوداً في دنياه لتلفت الناس إليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقياً محروماً فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدى يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فلاذكر أن تلك الثورة شبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائنه حيناً، ثم تحول إلى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينفع غلته، ويطفىء ضده . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أتون متسع يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين^(١)) أنه لما قدم على الصاحب قدم إليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلاً لا يقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصله نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبي، أكرمك الله، إذا سألت عنه ، شايخ الوقت ، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيراً من مخازيه، إما هرباً من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ، سوى ما فاتني من حديثه، فاني فارقت سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذنبى إن ذكرت عنه ما جرعه من مرارة الحمية بعد الأمل، وحملى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأنى خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون^(١) غيرى“.

٤ - وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ نحسين حولاً ما على يدٍ لأجنى ولا فضلٌ لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكو لثيماً ولا أطرى أخاً كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد الأنام إذا كان إلى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض الناس :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإفتار، فسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونُبلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء“^(٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنياً بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعاً للفقير وطلباً للآل، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والظن والجحود.

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدى يقدم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجاح في أحرىات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد مذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلاب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مَرَّة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

”بغواي لك : أن عياني منهم في الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد المات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف القاضع عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاظم الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرأن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيـل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تشور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ما هو الضمير ، وما هي

متانة الخلق، وماعنى الكرامة، وماملول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملق والمداهنة والرياء ، فشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضرم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأخش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والحرص ، قبل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقي العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قورود
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .
ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضاعه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد ، أو شئ آخر من جنسه ، وأنت تدعى

الحكمة وتكلف في الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك، وأطلع على شرك وشرائك".

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق.

ويظهر مع الأسف أن الإنسان يبالغ في درس الغرائز ونقد الطباع، فإذا وصل إلى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب.



٨ — هذا الذي قدمناه عن التوحيدي جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذي يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة. والشخصية الثانية شخصية الباحث الذي ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون. وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه إلينا رجال فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا تصويراً يقرب من الإتقان في كتاب المقابسات. وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولاً بالهند، ثم طبع أخيراً في مصر طبعاً متقناً معنياً به من بعض الوجوه. وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلاسفة الإسلامية. ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد، وإن كنا نرى في ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكي الجاحظ في أسلوبه الفلسفي والأدبي فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التي تقبلها الناس في ذلك الحين. وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين في ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكلي وكيف تبذر بذور الخلاف، فإذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهوروا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أمرها أن كثر الشك والارتياب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدى في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشكلة لحال البهيمة ؟ أما يأتقون ؟ أما يضجرون ؟“

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطل أبو حيان إطالة مملّة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتره الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدّث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وانك لترثى له وتبكى لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمننى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم “ وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخلفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء “ والخوارزمى^(٢)

هذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف ، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الاهاب ، فلا عجب أن يردّد ”التوحيدى“ شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى ، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة ”فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أى حال تمت ، لتعجبت ، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منها بتقذك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة ، وعاقبة مفضية الى كرامة ، فقد بلغت شمسى رأس الحائط ، والله أستعين على كل ما هم النفس ، ووزع الفكر ، وأدنى من الوسواس “ .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى ، كتب حين بلغت شمس رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة ، فهو أنضح ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يهمننا فى هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة ، والمقطوعات البديعة ، والأخبار الطريفة ، إنما يهمننا بنوع خاص ما مر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات ، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسيمات .

١١ — والصورة التى يقدمها التوحيدى تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولي أو خليف . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشع أو مداح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزمل أو مضل أو مغل^(١)“ .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدّة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة اذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرعى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فاما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتيمم والتهيم والهوى والصباية والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلالأمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط^(٢)“ .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :
مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ، وينزع الى الوالدة لشفتها ودعائها الذى لا يرج الى الله مثله ، ويشتاق الى أخته للصيانة لها والترويح اليها ، والى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم، ويصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يحده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي انجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوق الى كل من نعتك لك ، لأننى أباته بما أجل أبى عنه ، وأجبا من أمى فيه ، وأطوبه عن أختى نجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يققا ما بينى وبينه . فأما العشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظره ، ونصيب من زيارته ، وتحفة من حديثه . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الى دون الصديق الذى حريمى له مباح ، وسارحى عنده مُراح ، أرى الدنيا بعينه اذا رنوت ، وأجد فائتى عنده اذا دنوت ، اذا عززت له ذل لى ، واذا ذلت له عز لى ، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة ، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة ، لا يتوارى عنى إلا حافظا للغيب ، ولا يتراءى لى إلا ساترا للعب^(١) .

وقد عرض التوحيدي للصدافة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ - ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها لنا التوحيدي حين قال :

”قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستاني : إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية ، وصدافة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومواتاة خلقية ، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى ! اختلطت ثقى به بثقتي فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فيبئنا بالطالع ومواقع الكواكب مشكلة عجيبة ومظاهرة غريبة ، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات ، والاختيارات ، والشهوات ، والطلبات . وربما تراورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد اقتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمر حدث لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فتراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل“ .

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدى به في الأول قد حجبني عن موجدتى عليه في الثاني، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكفاية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، واليه مفزع، وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري الى شفتي، ولا نذت عن صدرى الى لفظي، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حمر النعم. وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الى روحها، وخلط بى طيها وحلاوتها^(١).

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري الى شفتي، ولا نذت عن صدرى الى لفظي".

هيات هيات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون.



١٤ — وينبغي أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر انقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريية، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون المرضى حتى لا يتراب مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجما والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار
مستحقاً للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هي الخلود والديمومة^(١) .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع وهي من
أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدي
كان بينهم . أما لغتها فليست من التراث الفني الذي كلف به مشاهير الكتاب في ذلك العصر،
ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون
إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم في مثل لغة الصابي وابن العميد . فلم يكن
لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن
غلبت عليهم النزعة العامية في بعض الأحيان^(٢) .

(١) ص ١٥ مقدمة المقاييس . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليفة بأن تدرس درسا مفصلا
في هذا الكتاب . ولكن رأينا الباحثين أطلوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن التراث الفني فيها
قليل . على أننا لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية في باب (الأخبار والأفاقيص) — راجع
« الإنسان والحیوان أمام محكمة الجن » في الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التي أثبتناها هناك في فصل (السجع
والازدراج) .

٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل إلى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلي صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك إلى أن حريات عمره . يدانا على ذلك قوله يبنى عميد الملك باتفاق الأضخى والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيدك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائق خيرت في كل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورتد على العمر من كتب
فطاب لي هرمى والموت يلحظني	لحظ المريب وأولا أنت لم يطب
فإن تمرس بي خصم تعصب لي	وإن أساء إلى الدهر أحسن بي
وقد بلغت إلى أقصى مدى عمرى	وكل غريبى واستأنست بالنوب
إذا تملاأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نالغا في جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدى، فقد غمزه في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"^(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثة بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صعب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياءى الرازى مملوك الهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائفة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولننظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بينى وبين أبى على مسكويه شيء: قال لى مرة: أما ترى الى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بينى وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أوجاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شئ آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك وأطلع على شرك^(١) وشرك^(٢) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترف والتودد إلى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غربيا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفقى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حد مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يستتر تحامله على ابن مسكويه لا يحد غير هذا الشئ الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ“^(٢) .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفربها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحا يتلقفه لثام الشعراء والكاتب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذانى رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم التباهة والصيت فيما يتر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل لإنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكدرُوا ما كان
ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عَزَّان واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلاً
كما لو وشى واش بعزة عندنا نقلنا ترحح لا قريبا ولا أهلاً

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قبضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ،
ولا الصديق ظهوره ، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فضاء ظنه ، ومعاذ الله
أن أقولها ، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى وبينه عتاب لا يتزع كنفه ، ولا يجذب
أنفه ، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كعريضة أهل
الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة ، كغناء لحظة ، فسبحان
من ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ، وتابط شراً ، وأوحش حراً ، وأوجب عذراً ، بل سبحان
من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقته ، وأستخيل صاعقته ، أنا المساء إليه ، والمجنى عليه ،
والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كما بليت ، ورمى من الحسدة بما رميت ، ووقف
من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، إعتذر مظلوماً ،
وأحسن ملوماً ، وضحك مشتوماً . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد ، وأولاد العدد ، بهذا البلد ،
ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية ، لضىن بعشرة غريب إذا بدر ،
وبعيد إذا حضر ، ولصان مجلسه عن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حكى له ،
أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الخانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا
من الأستاذ نفساً لا تستقر ، وجبلاً لا يهز ، وشوا إليه بما أرثوا به نارهم . ورد على ما قالوه
فألبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلمٌ

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى جرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ،
وقصاراهم نار يشبونها ، أو عقرب يذبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أندارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاي إن عدت ولم ترض لى	أن أشرب البارد لم أشرب
إمسط خدى وأنتعل ناظرى	وصد بكفى حمة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خلب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجت الغلظة من سيدى	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة:
”أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها، وما أذهبنى عن هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد زه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء، وما يتخذ العدو بينهما مجالا“^(٢).

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغيا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظللا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فاقتفى منهاج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفى بها الصوفية

والناسكون والزاهدون، بل سائر العقل وصاحبَه وأنس به واطمان إليه، ثم اتخذَه أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يحتجب الشر لأنه نُهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لما اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق . وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربَّه وهو يومئذ آمن فى سرِّه، معافى فى جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة : عاهدَه على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحملَه الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إشار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها، وأوّل ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التى تحصل

في شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاعتماد على كل ما كان صواباً ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر يستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقطع الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال ^(١) إليه .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء في أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا يجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب ^(١) " وأن منهم آخرون " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ^(٢) " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شئ من الأخلاق طبعيا للإنسان " وإنما طبع الإنسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، ومزيتة أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكبله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الإنسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والمتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير^(١) والشرير .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته في تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع أرسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يربأ أقوال الحكماء ترتيبا سيئا في أكثر الأحوال ، لأنه لا يمشى الى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بخفاءها فلسفة اليونان بزوايع وأعاصير أطارت ما كان أستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتي من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم في ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففي رجال اليوم من له في كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لم في توافقههم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون في المساء صدى لكتاب قرأه في الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرينا من خالص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ - رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر - فيما يظهر - بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتباك ، لهذا نراه يهتم أولاً وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجوداً مستقلاً عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبه . سم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون - وما أكثر ما يضلون ! - إلا ليأسهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق نقية مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئناً إلى أنه متى صحت المقدمات حققت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركة في حال من الأحوال ، وكذلك نجده يبين الأعراض ويضادها كلها غاية المبينة ثم وجدنا هذه المبينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساماً والأعراض أعراضاً حكماً بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص^(١) .

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للتزاع إلا النفس وهى عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

”وبيان ذلك — كما شرح في كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتلث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شئ كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شئ من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثانى أيضاً تاماً كاملاً ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

ه — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه في استقلال النفس ، وكلامه في هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شئ لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشئ على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف في محو ما يحيك في الصدور من الريب في استقلالها

عن الجسم وتفرد لها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما أدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والجمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعا لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" ولو سكنت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتمل بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت عنه في جميع ما تتم به حياته خلقه وإلهامه ، أما الخالقة فلا أنه مكتسب بما يوافقه من وبر ووصوف وشعر وریش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لا قط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، وبعد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدرت له . فأما الإنسان فإنه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاوين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرة ، وإذا كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل^(١) .

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معاونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون^(٢) وإن كان لا يشعر بذلك^(٣) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ، والشرائع التي نعيش في حماها ، كل أولئك جزء من جهود إنسانية عديدة

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنّة في بطون أمهاتنا، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا بمرها طول الحياة، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت. فالنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولذا نكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل.

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسط القول في الصداقة بسطاً شافياً ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظاء، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرب الذي صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الكثرون. وقد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق. وتلك مسألة في غاية الدقة: فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق.

٤ - ابنه نباتة الخطيب

١ - اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصالح الصفدى وهى مذكورة في خزنة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)^(١) والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة لابن حمدان .

٢ - وابن نباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب الملل السائر في عدة مواطن في آابه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادي (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القايبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوبا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يمتنى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأنى بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لظاهر الجزائر ومقدمة ديوان ابن نباتة البشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآني فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوماً إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرّة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم الله الذي أنطقهم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لئار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولي تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، ويقول شهيدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لي : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبله وتقل في فمي وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحي ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرائي واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له في نومه لم يحدثه إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه في المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تغله في فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التي تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت في بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربي : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لي ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنُّ لك من قبل ذا واليوم أضخى لك أمان

والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة، فأنه عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة، ولكن أى ورقة ؟ هي صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر، وفيها بيتان من الشعر . فالرأى صور له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لي بقولي :

تكثر ما استطعت من الخطايا فأنك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت في كتاب الأخلاق عند الغزالي إلى المنامات التي رآها أنصار الغزالي وخصومه بعد موته ثم قلت في التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالي من أصحاب الكرامات، كما توه بذلك مترجموه، كلا! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل في قلوب المسلمين، فإن لما يراه المرء في منامه صلة قوية بما يلحج به في يقظته، وهؤلاء الذين جلدوا في منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين في تلك العصور الخوالي من سيطرة الأولياء، وتصرفهم المطلق في عالم الأحياء^(١) » .

٤ — هذا الجوّ الذي أحاط بابن نباتة، جوّ التقى والصلاح والزهد، أثر في خطبه أبلغ تأثير، فأفاض في ذكر الموت والبعث والحشر والميزان، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جوّ آخر أثر في خطبه وأعطاه صبغة قوية رهيبة، ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرته سيف الدولة .

٥ — ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغرمون بها ويكبون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيرا في الجماهير التي لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون في البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائما عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوي السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لما لا يدركون من النزعات الانسانية الكامنة التي يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكت فيهم طاعية التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد “^(٢) .

وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طاعية “ و ” رفاهية “ وبين ” التخليد “ و ” التمهيد “... وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا “^(٣) .

فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” القضاء “ و ” العفاء “ وبين ” أطرقوا “ و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فهلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواشبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غص الروس ، وفض الطروس “^(٤) .

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

ومما يحيد به ابن نباتة تضحين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية في سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له له ابن الأثير العبارات الآتية :

” فأيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فوروب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون “ .

وقوله في ذكر يوم القيامة :

” هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرايا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا “ . وقوله أيضا ” هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب “ .

وهذه التضمينات كثيرة جدًا في خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يحنى في هذا النوع .^(١)

٧ — ويجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لابن نباتة هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد في أمثال تعابيره المنقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ؛ لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخيل البارع قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج في عرفات :

” يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون على من لجج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خواضا لجج الرضاء “^(٢) وأنا يعجبني الخيال في قوله ” أنضاء على الأنضاء “ يريد الحجاج الذين أنضاءهم التقى والخوف على المطايا التي أنضاءها السير والسرى . وقوله

”خواضا لجح الرمضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرمضاء، لأن أيام الجح لا تكون دائما في القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .

”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إطماع السراب ، تتهارش على حطامها تتهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن الى المنكر سكون الباني بالحدود الكعاب ، وقد أظننا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب “^(١) ؛

وقوله في خطبة أخرى : ”إن للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال “^(٢) .

٨ — أما من الوجهة العقلية فإن نباتة يقف دائما في حدود الأفكار السطحية، فيبدى ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء، ثم يخطب في فضل رجب ، ثم يودعه ليستقبل شعبان ، ثم يودع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهتم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتهب والرأى السديد . وهي دائما دون خطب علي بن أبي طالب التي كان يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : ”فقدموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء “^(٣) وقوله : ”واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عقابها ، وأحرر اللطام ضرابها ، وأمر الحسام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ،

وطالعت الحور الحسان منه أحبائها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الان خُطابها ،
 وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهول باحتشاد عبدة صُلبانه ،
 وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه ؛ وجاء الحق وبطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات
 والآفاق ، فأنحدوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادر الحملات حججه ،
 وأضربوا ببيض الصفاح شبحه ، وأركبوا ببذل الأرواح لجهه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف
 تساس العامة وكيف تغرس في صدورهم بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدى الأغراض
 المرجوة من مثله في تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت
 مثلاً في براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها
 عى ، والتدلى في إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

٥ - أبو محمد بن حزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة . ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين . وكتابه "الفصل في المأل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقليل والقال . وأقول ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" في ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بـتروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جداً في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً ألف في "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لافي اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة ، لأن أوروبا في القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جداً في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقاً أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والفلسوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماماً من أئمة الدين ، ومثلاً يُحتذى في أدب النفس ، وكرم الطبع ، ومتانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليفاً بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص ، ولكننا رأينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لنثره الفني في هذا الكتاب . ولد أبو محمد علي بن حزم سنة ٣٨٣ في قرطبة . وتوفي سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وان مكاتاً ضاق عني لضيق * على أنه فيح مهامهسه سب

وان رجلاً ضيعوني لضيع * وإن زماناً لم أقل خصه جدب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم :
جولديزهير ، ودوزي ، وبروكلمان ، والدكتور سنوك هوجزنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق
المستشرقون الألمان والنسويون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمر بكيون إلى استغلال
ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون ويعيدون حتى جاء
المسيو مرسيه فوضع بحثا هاما جدا بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من
الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق
الحمامة فراجع مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين
أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة
باريس فأقرها المسيو دي مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ — في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يتحدثنا بأنه كانت له
صبوات في عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تفتح ودمع على الخدين يهيم ويسفح
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبسدى وتفضع
إذا ما جفون العين سالت شؤونها فدنى القاب داء للغرام مبرح^(١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمسدى الأنس . ويقول
في ذلك :

”واني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه
ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة . وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ،
وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا ، وأخذني معه في كل جد وهزل . وكذلك أنا في السلو
والتوق : فما نسيت لي ودًا قط . وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالماء ، ويشرقني

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملأت شيئاً قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الآلاف والاخوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني . ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه . وإني لقتيل المموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياذ زناها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتراج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتفاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	تم سريعا عن قريب نضادها
ولكنني أرض عزاً زُصليبة	متبع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقهما	فليست تبالي أن يجود عهادها ^(١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودي بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها في شعر ولا نثر . وأنظر كيف يقول :

”إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستريدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسامة ولا رهقتني فترة . ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقتصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل بُبانة من بُباناتي ، ووجدتني كلما ازدددت دنوا ازدددت تلددا^(٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . فقلت في ذلك المجلس :

(١) طوق الحماة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شقَّ بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حيت فان أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأما الوشاة ، وسما من البين ، ورغبا
عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقد العذال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح
الله لهما رزقا دازا ، وعيشا قازا ، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال^(١) .

٤ — وكان ابن حزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة
الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يجد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي
عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن
الواقع لا عن الخيال . وقد تلقط كثيرا من محاسن العشاق ومساوئهم ودون في كتابه أخبارا
غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذي لا يستطيع قوله :

” وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زما ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم
وأستيفائه حتى دعت نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفي ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قربكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى
كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه رأى البرق في داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى^(٢)

ولنتظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت
التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :
” وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبحلها في الماء
ومحو أثرها قرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فأثرت أن يبق وداد ويمتحي مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه مئة ربه ولم يدره اذ تمقته الأصابع
ويذني أن يكون شكل الكتاب لطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمري إن
الكتاب لسان في بعض الأحيان : إما لخصر في الانسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم حتى أن
لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم الحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها الحب عجيبة تقوم
مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق
يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدي ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول
ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع
المراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار ، داني المزار ، ويحكي أنها من وجوه اللذة . وأما سقى
الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقى الحبر بالريق . وفي ذلك أقول :

جواب أناني عن كتاب بعثته فسكن مهتاجا وهيج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبتة فمال محب ليس في الود خائنا
فما زال ماء العين يحو سطوره فياماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي أول الخط بينا وأضحى بدمعي آخر الخط باننا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم وأستد منه
وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصيغ اللك^(١) .
هـ — وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التي كان يحياها أهل الأدب
والفلسفة وبعض رجال الدين في تلك العصور .

وفي اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب في الأندلس كانوا ينظرون
الى الحب في القرن العاشر بنفس العين التي كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى
الحب في القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ والمث بالفتح نبات يصغ به وبالضم نغله أو عصارته .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق . ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الإسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربي بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام في الحب لونا من العبث . لأنهم يعتقدون عن طبائع النفس الإنسانية التي لا تخلو من صبوات في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها الى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر : لأن الفتاة التي أحبها لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر ، وفي هذا يقول :

”ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يهتمون في تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا أحبابا بهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيرا بهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الحلقة^(١) ولا مالوا الى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حينئذ منهم الى من فقدوه وألفه لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعنا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقدتهم بغيره . واني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص^(٢) فما

(١) في الأصل (الخلقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أعيد ولا غداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي الحظوظ في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وإنى لأجد هذا في أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتبنى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله^(١) .

ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل في علم النفس ويمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة في تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة لنرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال فقد شق الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ في خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كرية وبعضها مقبول، وفقا لما لتلون به من غدر أو وفاء، وهى فى حالها سم حلو المذاق ، فهى سر ما تلقى فى دنيانا من رشد وغى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل فى مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت فى الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

وإني لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير في تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير في حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحسب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية في الأذواق والأحاسيس ، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين في فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ما قال الأسلاف في صدق وإخلاص ، نجد الطبيعة الانسانية هي لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر في تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون ”القدم“ لوئاً لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا في شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

”لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت في مجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب أوحين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن ، ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى في الخط . ولم يكن وكدى وأعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا في سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل^(١)“ .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء في الأندلس في أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء في منازل الوزراء — كما هو الحال في جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التي كان يتلقى فيها الدروس، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها ”نم“ وكانت أمنية المتمنى، وغاية في حسن

الخلق والخلق . وقد جفنته فيها الأقدار واخترمتها الليالي وسنه دون العشرين وكانت هي
دونه في السن وفي بغيته بها يقول :

”لقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفترلي دمة على جمود عيني وقلة
إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد
وطارف ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حي لها
على كل ما قبله وحرم ما كان بعده^(١)“ .

٨ — تحدث ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها ، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع
والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

”أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي ، وكانت متروجة يحيى بن محمد بن الوزير يحيى
ابن إسحاق فعاجلته المنايا وهما في أغص عيشهما ، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليه
أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات . وجعته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
بعده الى حين موتها^(٢)“ .

وهذه قصة تستثير الدمع ، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجهة قوله في كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبي بكر أنى رحمه الله وكان متروجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر
الأعلى أيام المنصور أبي عامر . وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلاها .
ولا تأتى الدنيا بمثلها في فضائلها . وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه . يقضب كل واحد منهما
للكلمة التي لا قدر لها : فكانا لم يزالا في تفاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها
حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم ، لا يلمها من الدنيا
شيء ، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها انفاقه معها ، وسلامته لها ، الى أن توفي أنى
رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

في اليوم الذي أكل فيه هوت تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواربها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمانى اليوم الخالق به^(١) .

٩ - والمرأة - كما عرفها ابن حزم - أكثر مواساة وإسعادا فى الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانها ما ليس عند الرجال . ويقول فى ذلك :

”وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستنقطة . وإنه لىوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا فى الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضاً الى غيرهن .

وإنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواربها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جليلة أمرها . فأخذتها وكانت غايطة العقوبة فاذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشئ مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان فى غير ملكها فعرفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهأ له ذلك . فقالت له : مالك ؟ ومن ذا الذى عَصِم ؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلع على سر كما أحدا أبداً ، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان اتصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد^(٢) .

وهذه الفقرة تشعرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح

١٠ - وقد فكر ابن حزم في تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر في تمكن طبع المواساة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملافاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معاني المواساة والإسعاد . ومن هنا يتحدثنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق إلى الرجال^(١) .

وهذا الذي يشير إليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل في فساد النساء . وهو كذلك الأصل في فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لاتقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتي ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما يتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهم أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلوات الجنسية ، فان تلك الصلوات أساس المجتمع ، وهي كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقولة على التزق والطيش والاسراف في الشهوات . وملاك الأمر في هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ - ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء في الضعف ، وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعاً معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

”ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة — أعني الصلاح — غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تخيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض للناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره إلى الصور البديعة التركيب ، والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة . ويتصدى للشاهد المؤذية ، ويحب الحلولات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء ^(١) .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرماً بدرس المرأة ، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكأن يطلعنسه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فإن التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به علماً أني برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجرة ^(٢) وإني أقسم بالله أجل الأقسام إني ما حللت مثري على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم ^(٣) فيما بقى » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجرة ، بالضم ، معقد الإزار ، ومن السراويل موضع النكة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة فى الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمون به بالميل الى الإثم والفسوق . بخاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقد يهزّ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته فى درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا استبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث الا الفاسقون . وكان ابن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل فى ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع الى حقيقة ثابتة : فان الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يتمثلون الحب إلا موصولا بالفسوق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحز مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فان الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرارته من يسومونه الهوان حين يطمعون فى الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى فى درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فإنه أشرف وأنفس ما فى الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون الى درس ما فى وجوههم من دمامة ، وما فى طباعهم من عوج ، وما فى عقولهم من آلتواء . إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت فى مواجهته إلا أصحاب العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب فى عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدراس أسرار الجمال !

٦ - أبو منصور الثعالبي

١ — كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوع النجم في الغياهب » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذى يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفى سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فزاء قبل أن يظهر أدبه ويعلمونجده ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالى ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ — كان الثعالبي شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره فى الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله فى النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوقي فى تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمي قبلت عين رسولى إذ رآك بها

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكننا لاحظنا أن له

اتجاهات قسبة تقربه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره بجيد، يغلب عليه السجع، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض. وانظر قوله في وصف عيد الله الميكالي: «ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره على فكره، من ملّح تترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها... وآيم الله ما من يوم أسعفني فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدني بالاقتراس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألاحظه، وآتتهبت فرائد الفوائد من ألاحظه، إلا تذكرت ما أنشدني أدام الله تأييده لابن الرومي:

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامي عنده بغير وزآباد، إحدى قراه برستاق جوين، سقاها الله ما يحكي أخلاق صاحبها من سبل القطر! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعياها الواصفون، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون. فاذا تذكرتها في تلك المراجع التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الخسرواني، ونفى معها الوشي الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سمرا وصيما، وخيرا عميما، وإرتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونعيا^(١).

٣ — أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات القلوب، وزوات الرأس، وثورات العقول. وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاختفاق، وتمرس بأحوال الاقبال والادبار، والغنى والفقر، والنعيم والبؤس، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال.

(١) (انظر مقدمة فقه اللغة).

وإنما هو كاتب شُغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى اختلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والعبريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان عجمي أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ — للثعالبي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكايات، وضعه للكاية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بالفاظ مقبولة تؤدى المعنى، وتحسن القبيح، وتلطّف الكثيف، فيحصل بها المراد مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلا على تفوقه في الابتكار . ولكن رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٢ يذكّر في مقدمة كتابه في الكايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه، ولم يُزاحم من قبل عليه، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضا يدعى السبق آداءً، وأن المؤلفين من قبله قد نحووا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكايات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما آداه الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكايات كتاب جيد ممنوع، لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براعة العرب وافتنانهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يستحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكايات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا نخيرنا أقل ما فيه روعة، إثارة للتحفظ والوقار .

حكى الصولي عن المكتفى في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنت فتحت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هذه الكاية قط . فقال : والله ما سمعنا قبل وقتي هذا وإنما ساقها اللفظ .^(١)

(١) ودواء السهر كاية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى أمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره ، وركب الطيار
فكيف شاهد جريه ، وهل سلم على حزونة الطريق ، وكيف تصرف ، أفى سعة أم ضيق ؟
(وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكايات عن أخذ العذرة ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له
يزيد بن منصور فى دار المهدي : يا شيخ ما صناعتك ؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب
أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل ثُقب الدرُّ
وله يقول أيضا :

قلبي على الجمرة يا أبا العلاء فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه وهل كملت الناظر الأحوال
ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا وأزدد بزوجتك آرتياحا
قد رُضت طرفك خاليا فهل آستلنت له جمحا
وطرقت منغلقا فهل سنى الإله له آفتاحا

وأشدد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصدف وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت ليلا بلا حشمة لهول السرى سُدفًا فى سُدف

قال الثعالبي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام
والشراب ويلم بأهله احتياطا على دينه وتعففا بالحلال عما عساه تُتوق نفسه اليه من الحرام
إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى
فضلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطاني لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ،
ولطف كآيته ، وهو :

”وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينه وبين سداده“^(١).

هـ — ومن مؤلفات الثعالبي «كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»^(٢) وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يمثل بها، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم غراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزيز، وكقولهم كنز النطف، وقوس حاجب، وقرطامارية، وصحيفة المتلمس، وحديث خرافة، ومواعيد عرقوب، وجزاء سمنار، ويوم عبيد، وعطر منشم، ونسر لقمان، الخ.

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية. ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لغته في سائر كتبه بالخلق من السجع، والجرى على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء. وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لعهد من الطُرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص. وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير. ولهذه الملاحظة قيمتها، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه، وعدوها من العلم الصحيح.

فن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ: الثعابين لا تكون إلا بمصر واليهما حوّل الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾، يعني أنه حولها ثعباناً. والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم، فليس له عدو إلا النمس وهي إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنها دويبة متحركة، فإذا رأت الثعبان دنت منه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحبس في بطنها ريثما،

وتزفر زفرة فتقذّ الثعبان قطعتين ، ولولا النفس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القناوئ لأهل سنجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر كل هذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وإن كان فى فطرة الأهالى عداوة الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبي لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحدق فى عمل الطُرف ، يقولون : أهل الدنيا ما عدانا عُنى ، إلا أهل بابل ، فانهم عُر . ولهم الإغراب فى خراط التماثيل ، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصوّرهم يصوّر الانسان ولا يغادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك النجمل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوّر صورة فى صورة ^(١) .

وهذا الذى يراه الثعالبي غريبا من أهل الصين عادى لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعنى بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبي وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يحاربه رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فإن العرب تقول : عرق الخال لا ينাম . يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشرين من يمينك وعشرين شمالك وعشرين خلفك وعشرين أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الابل

والبقر والشيء . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطئة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيث أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منها الرحم وهو القلب الذي يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القلب . فإذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القلب وفي قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يغتذى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التي فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام في جوفها . فإذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء في أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهي تغذوه بدمها مرتين ، وتزيد في خلقه من أجزائها دفعتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم في بعض تفاصيله ، ولكنه في جملة يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام بفضل الخال وعدوه من جملة الآباء .

٧ — وفي ثمار القلوب إشارة إلى كتيب للثعالبي اسمه (حشو اللوزينج) بين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشيء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبه به الحشو في الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر في كلام العرب ، ومن أشهر قول عوف بن محم :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فقوله (وبلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملة . قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبي الفضل بن العميد فقال لي : امض إلى أبي الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانيا في كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرت إليه وبلغته الرسالة فقال : سألتني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى في حبس النعمان :

فلو كنت الأسير - ولا تكنه! - اذنت علمت معذ ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير (وبلغتها).

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحيى بن أكرم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لاله، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة. وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في حدود المرد الملاح.

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لاسيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التعابير التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والحوارزمي وبديع الزمان.

٨ - وفي ثمار القلوب تفسير روائى لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية. وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقى وبيته تلقاء وجهه فنظر فإذا برجل قد عانق امرأته يقبلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رآته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع، فنظر يمينه ويسرة فلم ير شيئا، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا. فلما كان الورد الثاني قالت المرأة: هل لك في أن اكفيك السقى وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت. فأقام في البيت، وانطأقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه، فقال : ويلك! مدهاك؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معانقا لها؟ فقال : والله ما كان عندى امرأة! قالت : بل أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء. فتحالفوا. فلما أكثرت قال : إن تكونى صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق.

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفاصيص . وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيرا للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبي "يتيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر في تحريره والإضافة إليه عدة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويحوي ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتألق في بناء داره التي هي عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنائها ، ويستجدها على أنحاء عدة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال^(١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطارئين على الحضرة بخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئین عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبي في اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة ، ولكن سجمه على كل

حال مقبول .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فإذا بداله أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقارنها على شعراء سائر البلدان .

”والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريتهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد المعجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق مجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أياهم“^(١) .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن أكثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبي والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالب في اليتيمة مفتون بالاسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله في ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني الكاتب ”يغرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“^(٢) .

وأبو الفرج البغيا ”ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الباقوت بل حب الفهم“^(٣) .

وأبو القاسم الاسكافي ”لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله في البراعة والصناعة“^(٤) .

وبديع الزمان ”نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس“^(٥) .

وعبد الرحمن الشيرازي ”روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب“^(٦) .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ص ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٢

١٢ - ومع أن الثعالبي يميل إلى الطنطنة في التعريف بالكتاب والشعراء فإنه لا يلتزم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويقلب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنسيق الإنشاء، وإذا ذلك لا يكون مشغولاً بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباته السعدي "من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، متمر النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب"^(١).

وحين يقول في محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشنات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفي أقسام الحسن، وتتركب الورد، ونظم كنظم الدر"^(٢).

وآنا يقول في المتنبي "نادرة الفلك، واسطة عقد الدهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضبعه، ورفع من قدره، ونفق شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه"^(٣).

١٣ - ولنقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما في نثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى يمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وإن كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب^(٤).

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) انظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقبل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحدثنا عنه، وفي أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبي عنى بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبي كتاب "فقه اللغة" وهو كتاب جيد في ثلاثين بابا رتب فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة في جملته من صنع الثعالبي، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والحوارزمي وأبي الحسن الجرجاني، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التي نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في كتابه . وهو يذكر في الفصول التي ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصيح أكثرها أو قارب الصحة .^(١) وقد يجد مؤلفا وضع في تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه ما يراه أصح لكتابته . وفي الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية .^(٢)

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر في موضوعه ، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حَكَم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التي رعى الى تحديدها في كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير .^(٣)

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبي — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر في نشر ما عُرف لعهد من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .